آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة السابعة : العددان الخامس والعشرون والسادس والعشرون - ربيع الأول ١٤٢٠ هـ - تموز (يوليو) ١٩٩٩م

■ كتاب الحلم والعلم لآدم بن أبي إياس العسقلاني - ٢٢٠هـ

* KITAB AL HILM WAL 'ILM, by Adam bin Abi Iyas Al 'Askalani - 220 A.H. - copy from the 7th century after Hijra.

النباتيان العشابان الأندلسيان

ابن الرومية الإشبيلي - ابن البيطار المالقي

الأستاذ/ عبد القادر زمامة
فاس - المغرب

يعد رصيد الحضارة الإسلامية القديمة في المشرق والأندلس والمغرب من العلوم والتجارب، الراجعة إلى فلاحة الأرض، وزراعة الحبوب المختلفة أنواعها، وغراسة الأشجار وتلقيحها، واستنبات الرياحين والأزهار، والبحث عن الأعشاب الصالحة للعلاج والطب والعطور والأصباغ وما إلى ذلك، رصيدًا لا يقدر بثمن؛ لأنه رصيد تاريخي ثقافي، رافق الحضارة الإسلامية والثقافة العامة والخاصة في أمصار مختلفة وأقطار متباعدة طيلة قرون، فكانت الأرض الخصبة، والتربة المغلة، والأشجار المثمرة، والأزهار العطرة، والأعشاب المفيدة النافعة طبيًا وصناعيًا، محل دراسة، وبحث، وتجربة، واستطلاع، ورحلة، يلتقي عندها الصيدلي، والعقاقيري، والطبيب، والفلاح، والعشاب، وكل من له اهتمام بالأصباغ والألوان.

والفضل في بقاء هذا الرصيد، ووصوله إلينا في هذا العصر، الذي تغيرت فيه الموازين والمفاهيم والاهتمامات، يرجع إلى كتب وأعلام ونبغاء في عصرهم، جمعوا بين ثقافة نظرية، ترجع إلى المعارف الشرعية والأدبية، التي لا تهمل الاحتكاك بالحياة العملية والثقافة العلمية بكل فروعها، ولاسيما ما يرجع منها إلى الزراعة والغراسة والنباتات بوجه عام.

وأمامنا - على سبيل المثال - مجهودات النباتي المشرقي أبي حنيفة الدينوري، المتوفى سنة ٢٨٢هـ = ٨٩٥م، التي نلمسها بإعجاب في معلومات مفيدة جمعها في كتاب (النبات)، واستفاد منها كثيرا مؤلفو المعاجم اللغوية، ونقلوا منها الشيء الكثير، مع نسبتها إلى صاحبها أبي حنيفة الدينوري.

كما أننا نشاهد في بعض معاجم اللغة العربية - منذ عصر مبكر - من كان من اللغويين المتضلعين يهتم، إلى جانب الألفاظ اللغوية، بجانب واسع من المفردات النباتية: أشجارا، وثمارا، وحبوبا، وأزهارا. وربما يأتي ببعض خصائصها في الطب والعلاج.

كما وصل علماء النبات والطب والصيدلة إلى معلومات مفيدة عن عالم النبات عن طريق الترجمة من لغات قديمة، تجلت في كتبهم وأبحاثهم ومعجماتهم وشروحهم، التي كتبوها للكتب المترجمة.

وتدعيم هذه الفِكَر وتوثيق هذه المعلومات، التي أشرنا إليها هنا، لا يكلفنا شيئا زائدا على إطلالات نقوم بها على كتب اللغة والمفردات الطبية والصيدلة؛ وإذ ذاك نخرج من النظرية إلى التطبيق.

وإذا نحن انتقلنا في بحثنا إلى الغرب الإسلامي، الذي يضم أمصار الأندلس، فإننا نجد البحث في: الأرض، والأشجار، والنبات، والأزهار، والغراسة، والفلاحة بوجه عام، قد سايرَ خطوات التاريخ، وبرز فيه آثار أقلام أعلام، لهم تراث متسع الآفاق في هذه الموضوعات، تنبه إليه سابقون ولاحقون من المهتمين بالحضارة الإسلامية، وإن كان بعض هذا التراث قد ضاع في الضائعات، أو لم تبق منه إلا أصداء ونقول هنا وهناك.

وعلى رأس قائمة هؤلاء الأعلام العالمان النباتيان العشابان، أبو العباس النباتي المعروف بابن الرومية، وأبو محمد ابن البيطار، وكلاهما من أعلام القرن السابع الهجري؛ الثالث عشر الميلادي، وكلاهما شاهد حضارة الموحدين في الأندلس، وقد مالت شمسها إلى المغيب، وأصبحت الأمصار الأندلسية على أبواب الرواجف والروادف والضياع، وكلاهما كانت له جولات ورحلات، بحثا عن أصناف النباتات في أقطار مغربية وأخرى مشرقية، شدَّت الأنظار إليهما شرقا وغربا.

أما الأول فهو - باقتضاب - أحمد بن محمد بن مفرج الإشبيلي المكنّى بأبي العباس النباتي، والمعروف بابن الرومية، ولد سنة ٥٦١هـ = ١١٦٥م من أسرة لها إسهامات في المعلومات والأبحاث الطبية والصيدلة، فاقتبس منها أبو العباس، وتابع سيره بذكاء واهتمام وجديّة إلى علوم أخرى.

فإلى جانب السير في الخط العلمي والثقافي لأسرته النباتية مال إلى علم الحديث النبوي الشريف، وإلى الأبحاث المتعلقة به من كتب، وحفاظ، ورواة، وأسانيد، وما لرجال الحديث من إسهامات في المباحث الفقهية.

ومن أجل ذلك برز ابن الرومية في التراجم التي كتبت عنه في المشرق والأندلس والغرب الإسلامي - بصفة عامة - بكونه ذا شهرة وباع في علمي النبات والحديث.

ويفيدنا المؤرخ الأندلسي البلنسي ابن الأبار، المتوفى سنة ٦٥٩هـ = ١٢٦٠م، والمعاصر لابن الرومية، بمعلومات عن علمه وشهرته ومذهبه، وذلك في كتابه (التكملة لكتاب الصلة)، فيقول: «إنه كان فقيها، ينتمي إلى ما ينتمي إليه فقهاء مصره من المذهب المالكي، لكنه تحول إلى مذهب الإمام ابن حزم الظاهري، واقتنع به، وتعصب للظاهرية، واشتهر ذلك عنه. كما يشير إلى أنه رآه مرات متعددة في حانوته، التي كان يجلس بها بإحدى أسواق إشبيلية، والناس يقصدونه بها؛ ليفيدهم بمعلوماته وتجاربه في الطب والعلاج، ويدلهم على الأعشاب التي تلائم ما يشتكون منه، وهو العشّاب الماهر»[1] الثقة.

ومن الطريف الذي يتعلق بابن الرومية العشاب وحانوته هذه في إشبيلية أن أبا العباس المقري المتوفى سنة ١٠٤١هـ = ١٦٣١م يحدثنا في نفح الطيب أن سلطان الأندلس - في وقته - محمد بن يوسف بن هود، المتوفى سنة ٦٣٥هـ = ١٢٣٨م، الذي ثار على الموحدين، وملك جُلّ بلاد الأندلس التي كانت بيد المسلمين، مر وهو على جواده بابن الرومية العشاب، وهو في هذه الحانوت، فسلم عليه، ورد ابن الرومية السلام، لكنه لم يرفع رأسه، ولم يلتفت إلى جهة ابن هود، وظل مع أوراقه التي يشتغل بها كتابة وقراءة في حانوته، وبقي ابن هود ينتظر إلى أن يئس منه، فساق جواده ومضى لحال سبيله، وكان إذ ذاك في أوج سلطته وقوته ونفوذه[2].

وحزمية ابن الرومية العشاب وظاهريته نص عليها من المؤرخين المشارقة: الإمام شمس الدين

الذهبي الدمشقي، المتوفى سنة ٧٤٨هـ = ١٣٧٤م، في كتابه (سير أعلام النبلاء)(٣).

أما المؤرخ الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب، المتوفى سنة ٧٧٦هـ = ١٣٧٤م فقد نص في كتابه (الإحاطة) على أشياء تتعلق بثقافة ابن الرومية، واستقامته، وعزة نفسه، ورحلاته إلى المغرب والمشرق، وأشياخه، وتلاميذه، وحجه سنة ٦١٣هـ، وما لقيه من حفاوة في الأمصار التي زارها عند الأمراء، والعلماء، ورجال الحديث، ورجال النبات والأعشاب والطب. ثم نعته بقوله: «هو البحر الذي لا نهاية له».

وأشار إلى ملاحظة دقيقة، فيما يؤكد على أنّ ابن الرومية كان عشابًا مع العشابين ومحدثًا مع المحدثين بقوله: «قام على الصنعتين؛ لوجود القدر المشترك بينهما، وهما: الحديث والنبات؛ إذ موادهما: الرحلة والتقييد، وتصحيح المشكلات اللفظية، وحفظ الأديان والأبدان، وغير ذلك»(٤).

وترجمة ابن الخطيب لابن الرومية في (الإحاطة) منقولة جلها من كتاب المؤرخ المغربي المراكشي محمد ابن محمد بن عبدالملك المتوفى سنة ٧٠٣هـ = ١٣٠٣م، المسمى (الذيل والتكملة)(٥).

وقد توسع ابن عبدالملك كثيرًا في نقل أسماء شيوخ ابن الرومية وتلاميذه، وذيل ترجمته بقصيدة نقلها في رثائه بلغت ٦٩ بيتًا، نظمها أحد المعجبين بعلمه وذكائه وعلو همته بعد وفاته بمدينة إشبيلية، مسقط رأسه، سنة ٦٣٧هـ = ١٢٣٩م.

ويحدثنا المؤرخ الأديب أبو الحسن ابن سعيد الأندلسي، المتوفى سنة ٦٨٥هـ = ١٢٨٦م في كتابه المسمى (القدح المعلى في التاريخ المحلّى)حديثا مقتضبا عن ابن الرومية العشاب المحدث، ويذكر أنه جالسه في مدينة إشبيلية بعد عودته من رحلته المشرقية، وأن علمه الذي اشتهر به بين الناس علم أنواع الحشائش.كما يسجل بعض أدبياته في كتابه المذكور(٦) .

بعد هذا يكون من المؤسف، ومن الخسارة العلمية والثقافية، أننا، وقد عرفنا – عن طريق بعض المؤرخين – أبا العباس النباتي العشاب المحدث، لا نعرف إلى الآن – حسب علمنا – كتابا من كتبه، ولا رسالة من رسائله، لا في النبات ولا في الحديث!!.

لكن لنا بعض العزاء في أننا نجد تلميذه الذي استفاد منه كثيرا، وهو أبو محمد عبدالله بن أحمد المالقي الشهير بابن البيطار، المتوفى سنة ٦٤٦هـ = ١٢٤٨م بمدينة دمشق، وهو عشاب نباتي شهير في المشرق والمغرب، ينقل في كتابه الذي بين أيدينا المسمى (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) نقولا متعددة ومتنوعة من كتاب شيخه ابن الرومية، ذلك الكتاب الذي يسميه مترجمو ابن الرومية باسم (الرحلة النباتية)، وقد وظف ابن البيطار هذه النقول في كتابه (جامع المفردات)، المرتب على الحروف من الهمزة إلى الياء، مستشهدا بأقوال شيخه ابن الرومية ومعلوماته، إضافة إلى أقوال الأئمة السابقين الذين كتبوا في الطب والصيدلة والأعشاب وما إلى ذلك. وابن البيطار يعرف عنهم الشيء الكثير، ويضيف إلى ذلك الشيء الكثير أيضًا.

ولعله من الممكن للباحث المتفرغ أن يجمع هذه المعلومات وهذه الأقوال، التي أخذت حيزًا من كتاب (جامع المفردات)، وهي منقولة كما يقول ابن البيطار من (الرحلة النباتية) لابن الرومية، ويحققها ويدرسها ويرتبها. وبذلك نكون قد أخذنا صورة حقيقية عن كتاب (الرحلة النباتية)، وعرفنا المجالات النباتية والطبية والصيدلة، التي عمل فيها ابن الرومية، عشابا، ورحالة، ومهتما بالطب والصيدلة في عصره.

وترجمة ابن البيطار متسعة الجوانب، ولاسيما أنه قد التحق بالمشرق والدولة الأيوبية ذات المكانة المرموقة في العاصمتين القاهرة ودمشق، وملوكها

لهم تقدير كبير لابن البيطار، وعلمه وبحثه وعمله المتواصل في تطبيب الأمراء والملوك ورجال الحاشية. وهو مع ذلك لا ينقطع عن البحث عن الأعشاب في أماكن متعددة، كلما حل أو ارتحل.

ومن حسن حظ ابن البيطار أن يكون الحكيم الأديب المؤلف أبو العباس أحمد بن أبي القاسم السعدي، المشهور بابن أبي أصيبعة الدمشقي، من تلاميذه المستفيدين منه، والمعترفين بفضله وعلمه ومهارته.

وابن أبي أصيبعة هذا ألف كتابه الجليل (عيون الأنباء في طبقات الأطباء). وإذا كان ابن البيطار قد أحاط علمًا بالأدوية والأغذية في عصره، وضمن كتابه (المفردات) خلاصة أبحاثه ومعلوماته، فإن تلميذه ابن أبي أصيبعة، المتوفى سنة ٦٦٨هـ = ١٢٦٩م، استوفى في كتابه المشار إليه أخبار الحكماء والأطباء من عهد الإغريق والرومان إلى عهد الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب، وخص أستاذه ابن البيطار بترجمة حافلة، كما خص ابن الرومية بترجمة متوسطة.

ومن المحقق أن ابن البيطار كان منضمًا إلى حاشية الأيوبيين في القاهرة، ثم في دمشق، وفي هذه المدينة العريقة في الحضارة، المزدهرة بالأعلام والنبغاء، والمدارس العلمية، ألف ابن البيطار كتابه الغزير الإفادة الذي سماه (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)، باقتراح من الملك الأيوبي، الذي كان ابن البيطار يلازمه ويعالج ما يشكو منه من أمراض، وهو الملك الصالح الملقب بنجم الدين الأيوبي.

ولا نحتاج هنا إلى الحديث عن كتاب ابن البيطار، الذي شرّق وغرّب، لما جمعه من مواد المادة الطبية، والصيدلة، والنباتية، والحيوانية وعناصرها، التي كانت مستعملة عند أطباء عصره، وعند من سبقهم بقرون، كما لا نحتاج إلى تقديم نماذج من هذه المواد التي رتبها ابن البيطار على الحروف ترتيبا منهجيا دقيقا، آخذا بعين الاهتمام تقريب مادته التي يتحدث عنها، ومعلوماته، وتجاربه، التي جمعها في هذا الكتاب (الجامع) من قرائه ورجال المهنة الذين يأتون بعده، ويقتفون أثره.

وكتاب الجامع يتكون من أربعة أجزاء ضخام، طبع أول مرة بالقاهرة سنة ١٢٩١هـ = ١٨٧٤م، ثم أعيد طبعه ببغداد بطريقة الأوفست، وصدر عن المكتبة المعروفة بمكتبة المثنى. ●

●●●

الحواشي

(١) التكملة : ١٢١/١

(٢) نفح الطيب : ٥٩٧/١

(٣) سير أعلام النبلاء : ٥٨/٢٣

(٤) الإحاطة بأخبار غرناطة: ٢٠٧/١

(٥) الذيل والتكملة: ق١/ ج٤٨٧/٢

(٦) اختصار القدح المعلى: ١٨١

المصادر والمراجع

ابن الأبار.
- التكملة لكتاب الصلة، ط القاهرة، ١٩٥٥م.

ابن الخطيب : لسان الدين.
- الإحاطة بأخبار غرناطة، ط القاهرة، ١٩٧٨م.

الذهبي.
- سير أعلام النبلاء، ط بيروت، ١٩٩٠م.

المراكشي : محمد بن محمد بن عبد الملك.
- الذيل والتكملة، ط بيروت، د.ت.

المقري.
- نفح الطيب، تح. إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م.